

المدن الفلسطينية في إسرائيل: ما بين الماضي والحاضر والمستقبل أريج صباغ-خوري*

يتناول هذا العدد من "جدل" المدن الفلسطينية التي جرى الاستيلاء عليها خلال نكبة عام 1948 وبقي فيها سكان فلسطينيون، وهي: يافا، واللّد، والرملة، وحيفا، وعكا. أصبحت هذه المدن تُسمى اليوم بأسماء مختلفة، حيث يشكل المصطلح "المدن المختلطة" أحد المصطلحات السائدة بين السكان الفلسطينيين الذين يعيشون في هذه المدن اليوم. بينما ترى أغلبية اليهود الذين يقطنون فيها هذه المدن مدناً يهودية.

يتناول العدد، باقتضاب، الدّور الذي كانت قد بدأت تقوم به المدن الفلسطينية قبل عام 1948، وي طرح عدداً من الأسئلة، على سبيل المثال: كيف تعاملت الحركة الصهيونية مع المدينة الفلسطينية، وكيف رأتها؟ ما هي السياسة أو السياسات الإسرائيلية التي تنتهجها المؤسسات الإسرائيلية والمستوطنون اليهود في بعض هذه المدن؟ ما هي أوضاع الفلسطينيين فيها، وما هي رؤيتهم للسياسة الإسرائيلية تجاههم، وما مكانتهم في هذه المدن، وكيف يحاولون المحافظة على البقاء الجماعي فيها؟ رغم أنّ تدمير الحياة المدنية في فلسطين يشكل أحد الجوانب المهمة للنكبة، فإنّ الدراسات التاريخية المرتبطة بتاريخ هؤلاء الذين بقوا فيها، أو هُجّروا إليها لم تكتمل بعد. ورغم ظهور بعض الأبحاث الفلسطينية التي تطرقت إلى تاريخ هذه المدن، فإنّ تاريخ الفلسطينيين الذين بقوا فيها -ولا سيّما في السنوات الأولى المؤسّسة للاستيلاء على هذه المدن- لم يُكتَب بعد على نحو معمّق. وفيما تطرقت بعض الأبحاث إلى التطهير العرقيّ لهذه المدن، نجد أنّها قد تعاملت مع الطرد لا مع البقاء، ومع السياسات الإسرائيلية لا مع البقاء الفلسطينيّ في هذه المدن والتجربة التي مرّوا بها في كلّ مدينة من تلك المدن الخمس. كذلك لم تحظ مسألة المدن الفلسطينية بحيز مركزيّ في الخطاب السياسيّ للقيادات الفلسطينية داخل إسرائيل.

لن يَفِي هذا العدد حول المدن الفلسطينية المدن حَقَّها، غير أنَّه محاولة لفتح ملفّ المدن الفلسطينية وأوضاع الفلسطينيين الذين يعيشون فيها. وكان مركز "مدى الكرمل" قد ساهم، عَبْرَ مجلة الدراسات الفلسطينية، بعددٍ حول مدينة يافا وتاريخها (انظروا العدد: [يافا مدينة تختصر وطنًا](#))، إيمانًا منه بأهمّية التعامل الفلسطينيّ مع تاريخ هذه المدن وواقع الفلسطينيين فيها. وعليه، فقد خصّصنا هذا العدد من "جدل" لتاريخ وحاضر بعض هذه المدن، وتطهيرها العرقيّ من أغلبية سكانها، وتأثير غيابها على المشهد الثقافيّ الفلسطينيّ وإمكانيّات تنظيم المجتمع الفلسطينيّ بداخلها، كمساهمة في طرح موضوع المدن الفلسطينية بقوة أكبر، وكجزء من إحياء النقاش حولها وحول تاريخها.

تشكّل مقالتني "الفلسطينيون في المدن الفلسطينية في إسرائيل: واقع كولونياليّ استيطانيّ"، في هذا العدد، خلفيّة عامّة حول السكان الفلسطينيين الذين يعيشون في هذه المدن، ومنابع تسمية المدن الفلسطينية بـ "المدن المختلطة"، والسياسات الكولونياليّة الاستيطانيّة لدولة إسرائيل الهادفة إلى محو تاريخ هذه المدن وتقليص عدد السكان الفلسطينيين فيها وإقصائهم عن حيّزها، وخصوصيّة الفلسطينيين الذين بقوا فيها بالمقارنة مع سائر السكان الفلسطينيين. تدّعي المقالة أنّ هناك عودة إلى التعامل مع التاريخ الفلسطينيّ لهذه المدن وطرحه في "الخطاب السياسيّ الرسميّ" عند التعامل مع دولة إسرائيل. ذلك الحضور المجدّد للتاريخ الفلسطينيّ يرتبط بالتنظيم الجماعيّ للفلسطينيين القاطنين فيها من خلال الأطر والجمعيات التي تعمل بداخلها، وكذلك من خلال نشاط الأحزاب العربيّة فيها، فقد ظهر ذلك جليًّا -على سبيل المثال- في خطاب بعض الأحزاب السياسيّة العربيّة في انتخابات السلطات المحليّة في تشرين الأوّل هذا العام (2013) من خلال إحضار تاريخ هذه المدن إلى الحملة الانتخابيّة.

تتطرّق مقالة **جويل بينين** إلى نوع العلاقات التي سادت بين الفلسطينيين واليهود في بعض المدن خارج تأثير الحركة الصهيونيّة على الوجود اليهوديّ في فلسطين. يدّعي الكاتب أنّ الوجود اليهوديّ الأساسيّ في فلسطين كان في المدن، وكان مبنياً على علاقات التعايش بين اليهود والعرب. من خلال هذه المقالة، يصوّر لنا بينين صورة من لحظة تاريخيّة سبقت سيطرة المشروع الصهيونيّ على الوجود اليهوديّ في المدن، وبذلك تطرح مقالته سردية تاريخيّة مختلفة للوجود الفلسطينيّ اليهوديّ في حيّز مشترك. ومن خلال التطرّق إلى التاريخ، تطرح المقالة أماناً إمكانيّة بديلة لتناول وجود عربيّ ويهوديّ في حيّز مشترك في هذه المدن خارج منظومة الأيديولوجيا الاستيطانيّة. كذلك يتطرّق بينين إلى عمليّة التطهير العرقيّ التي نقّذتها الحركة الصهيونيّة على روافدها المختلفة في كثير من

هذه المدن، وإلى التطهير العرقيّ التامّ لمدينتيّ صفد وطبريا اللّتين تميّزتا بوجود يهوديّ كبير قبل النكبة، وإلى مدينة بيسان. يشير بينين إلى أنّ ما يسمّى اليوم "المدن المختلطة" هو نتاج لتطهير عرقيّ غير مكتمل واستيطان واسع للمهاجرين اليهود الشرقيّين في كلّ من يافا وعكا واللّد والرملة. أمّا في مدينتيّ القدس وحيفا، ففي الغالب استولى هناك اليهود الإشكناز على البيوت العربيّة.

يأخذنا **جونى منصور** إلى اللحظات التاريخيّة لعكا وحيفا في ما قبل إقامة دولة إسرائيل، ويعرض، بصورة مقتضبة، تاريخ هاتين المدينتين، في محاولة منه لتسليط الضوء على الحياة الفلسطينيّة التي سبقت النكبة والأدوار الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي كانت المدينتان (عكا وحيفا) قد بدأتا تقومان بها في المشهد الفلسطينيّ. فضلاً عن هذا، يتطرّق منصور إلى أحداث النكبة في هاتين المدينتين، ويرسم صورة للأوضاع الصعبة التي يعاني منها سكان هاتين المدينتين بسبب سياسة التهويد والإقصاء التي تتبّعها المؤسّسة الإسرائيليّة تجاه هاتين المدينتين وسكانهما.

أمّا مقالة **حاييم يعكوبي**، فتسوقنا إلى مدينة اللّد، كنموذج للتطهير العرقيّ الذي حدث للمدينة الفلسطينيّة خلال النكبة وبعدها، وللطريقة التي جرى بها الاستيلاء على المدينة وعلى بيوتها ومنع الذين بقوا من العودة إلى بيوتهم. يدّعي الكاتب أنّه على الرغم من سياسات التهويد التي انتهجت تجاه مدينة اللّد منذ إقامة دولة إسرائيل، والتي رمت إلى التحكّم بـ"التوازن الديموغرافيّ" بين اليهود والفلسطينيّين، جرت هناك سيرورة مضادّة متمثلة في هجرة فلسطينيّة داخليّة ونموّ طبيعيّ في صفوف الفلسطينيّين، وهما (الهجرة والنموّ) أمران فرضا تحدّيًا لـ "التوازن الديموغرافيّ" الذي حاولت دولة إسرائيل المحافظة عليه منذ السيطرة على هذه المدينة. علاوة على ذلك، يدّعي الكاتب أنّ ما يُطلق عليه "البناء غير الرسميّ" للمساكن الفلسطينيّة والاحتجاجات ضدّ هدم المنازل في اللّد، من ناحية، وإعطاء خدمات مدينيّة من مختلف الأطر الفلسطينيّة أو الأطر العربيّة اليهوديّة الفاعلة فيها، من ناحية أخرى، شكّلا بديلاً متحدّيًا لسياسات التخطيط الحكوميّة.

يتناول **دانييل مونثيريسكو** مدينة يافا التي كانت تسمّى "عروس البحر" حين كانت تشكّل المركز المدنيّ الأكبر في فلسطين. يعرض الكاتب، باقتضاب، عمليّة التطهير العرقيّ للمدينة خلال النكبة، ومن ثمّ يصف سياسة المؤسّسة الإسرائيليّة تجاهها، ومحاولات السكان الفلسطينيّين الحفاظ على

وجودهم الجماعيّ فيها. يصف مونتيريسكو، بمقالته، الظاهرة القائمة في مدينة يافا، وهي ظاهرة الـ gentrification، التي يُقصد بها تحويلُ أحياء فقيرة في المدن إلى أحياء غنيّة عن طريق شراء عقارات من قِبَل أغنياء وشركات خاصّة. يلقي مونتيريسكو الضوء على نزعتين مركزيّتين في يافا الحاضر: الأولى تتمثل في النشاط الاستيطانيّ الذي تقوم به حركة مستوطنين، مدعومة من قِبَل سياسات الدولة، بـ"تطهير" الأحياء العربيّة القديمة في يافا من عروبتها؛ والثانية تتمثل في التحالف بين ناشطين فلسطينيّين ويهود يمكن تصنيف العديد منهم كمن قَدِموا للسكن في يافا تحت مظلة الـ gentrification. لكن في هذا الصدد، أعتقد أنّ هنالك أهميّة لاستحضار السياق الكولونياليّ الاستيطانيّ الصهيونيّ لفهم الظاهرة التي يتحدّث عنها الكاتب، فبخلاف مدن أخرى في العالم تجري فيها عمليّة الـ gentrification وما تحمله هذه الظاهرة من أبعاد طبقيّة، فإنّ العامل الاستيطانيّ القوميّ للدولة وهدفها في تطهير الحيّز الفلسطينيّ يلتقي مع مصلحة أصحاب رؤساء الأموال اليهود، الذين يطمحون إلى جنيّ الربح جرّاء الاستثمار في الأحياء العربيّة الفقيرة.

أمّا علاء حليحل، فيرسم لنا المشهد الثقافيّ لدى الفلسطينيين في إسرائيل في ظلّ غياب المدينة، ويشير إلى أنّ النكبة وغياب المدينة قضى على إحدى ركائز الإبداع الثقافيّ المركزيّة وهي "ساحة المدينة"، التي تحمي الإبداع من "حميّة الريف"، وهي المكان الذي فيه -في المعتاد- يكون الإنتاج الثقافيّ الزخم، غير مُلغ بذلك إمكانيّات الإنتاج الثقافيّ في الريف، بل مشدّدًا على خصوصيّة "ساحة المدينة" ودورها في الإنتاج الثقافيّ. وبدل المدينة التي هُدم نسيجها وجرى تغيير معالمها، حضرت المدن الفلسطينيّة في الذاكرة. هذه "المدينة الفلسطينيّة المتخيّلة" في الذاكرة هي الدفينة التي -برأيه- تُؤوي جيل المثقفين والمثقفات من الفلسطينيين. فهو يشير إلى أنّ المدينة الفلسطينيّة لم تغب عن عمل المسرحيين والسينمائيين؛ فهم حاولوا استحضارها بصورة مستمرّة. وفي ظلّ طرحه لغياب المدينة كساحة، وفي ظلّ ثقافة الريف المشوّهة، هو يطرح بعض التساؤلات المهمّة: "كيف يمكن إنشاء مدينة حقيقيّة من دون ريف حقيقيّ؟ من أين سيأتي كتاب ومخرجو ومبدعات الجيل الجديد إلى المدينة كي يطرحوا الأسئلة الجديدة، إذا لم يأتوا من ريف حقيقيّ؟".

نحن نرى في هذا العدد افتتاحيّة لطرح موضوع المدينة الفلسطينيّة في إسرائيل، تلك التي بقي فيها فلسطينيون (يافا، واللّد، والرملة، وحيفا، وعكا)، وتلك التي لم يبقَ فيها فلسطينيون (صفد وطبريا

وبيسان). هناك مقالات تركز على الجوانب التاريخية لهذه المدن، وهناك مقالات تتطرق إلى حاضر هذه المدن وتحدّي السكان الفلسطينيين للسياسات الإسرائيلية فيها وإمكانيات العمل القائمة على أساس ثنائيّ القومية بداخلها. ولكن ثمة أسئلة من المهمّ طرحها والإجابة عنها بعمق: ما هو أفق العمل السياسيّ الذي يطمح سكان هذه المدن وقياداتهم إلى العمل ضمنه في هذه المدن؟ ماذا حدث للثقافة الفلسطينيّة في إسرائيل في ظلّ غياب المدينة الفلسطينيّة وتضييق الخناق على أفق المدينة التي بقيت ولم يُهجّر سكانها؟ ما هي رؤية القيادات الفلسطينيّة لهذه المدن، ودورها الثقافيّ والسياسيّ في ظلّ السيطرة شبه التامة للمؤسسة الإسرائيليّة عليها؟ هل القول إنّ الناصرة هي عاصمة الجماهير العربيّة معناه "التخلي" عن المدن الفلسطينيّة؟ هل أفق المدينة التي نريدها هي المدينة "الباقية"، أم يجب طرح قضايا المدن الفلسطينيّة التي سيطرت عليها المؤسسة الإسرائيليّة، وعملت على تهويدها - ضمن مشروعها الاستيطانيّ الكولونياليّ- كجزء من إعادة ترتيب العلاقة مع دولة إسرائيل، ومن تعاملنا مع تاريخنا ومع قضيتنا الفلسطينيّة، ممّا يستدعي فتح ملفات تاريخ هذه المدن؟ هل هناك رؤية جماعيّة تتعامل مع هذه المدن، ومع الفلسطينيين الذين بقوا فيها بصورة جماعيّة، أم إنّها ترى في كلّ مدينة حالة خاصّة؟ تلك بعض من الأسئلة التي من المهمّ طرحها ومناقشتها والإجابة عنها على نحو أوسع. ونحن نأمل أنّ هذا العدد من "جدل" سيشكل محقّراً في سبيل الاستمرار في طرح هذه القضايا ومعالجتها.

*أريغ صباغ-خوري هي طالبة دكتوراة في قسم العلوم الاجتماعية وعلم الإنسان في جامعة تل أبيب، وزميلة بحث في مدى الكرمل-المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية.